لسان الشمعة يلفظ دخاناً رقيقاً ينعكس على القارورة نصف الفارغة خيطاً يلتوي ويسيح على الزجاج.

الزجاج مَجَرَّة نائية تتراءى نجومها حبّات رمل متناثرة، ولسان الشمعة براكين، والظلال بِحار ظلْمة خَلْفَهَا بِحَار. قَدْ لاَ يُفَكِّرُ الجالس هناك في شيء مُحَدَّد. جثّته المُتْعَبة في غيبوبة الموت نهر عظيم ينحدر من قمم الجبال، ويمضي السيل كأنّه نزيف كَوْن يسقط في هوّة بلا قرار.. تنهدّ المدنُ الأحلامُ الذكرياتُ وجوهُ الأطفال الصّبايا السّاعاتُ الأيّامُ الأعوامُ الدّهورُ الظّلال الشموسُ الزغاريدُ الأعراسُ المآتمُ الدُّولُ الحكوماتُ الكواكبُ المجرّاتُ البحارُ الفصول..

كأنّه يرفع إلى السقف رأسه أو يهمّ بحركة مّا يطرد بها مخاوف قديمة تستيقظ فيه بين سجن الغرفة والفجر الّذي سَيَأْتِي.. «هل يصبّ كأساً أخرى يُوقِفُ بِها زَحْف الظلال؟»! يده المرتعشة ترتفع ثمّ تنخفض وتنسكب من بين الأصابع قطرات أو كذلك بَدَا المشهد للرّائي من خلال الثقب..

الغرفة مستطيلة لاَ يُرَى منها في الإطار الفولاذيّ سوى الجالِس مُدْبِراً وطاولةٍ وَقَفَا كرسيٍّ وقارورة وصحن وحبّات زيتون وَقِطَع جبن وهيكل سمكة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر ونافذة مُغْلقة تغمر شقوقَها بين الحين والآخر موجةُ ضوء. وترتعش الستارة. لعلّه المطر يركب العاصفة ويُلاحِق الرعد، والسماء بَحْر ظلمة وبروق والذاكرةُ شارعٌ قَفْر إلاّ من قطط المزابل ومومسات آخر اللّيل والسكارى والوحل وارتعاشة الماء على الإسفلت تحت أضواء الفوانيس الشاحبة.

الثقب هو ذاتُه. حينما نظر إلى الدّاخل في آخر مرّة أبصر طاولة عليها صحن كأنّ به حبّات زيتون جافّة وهيكل سمكة، وعلى الحافّة قارورة فارغة ومرمدة مملوءة بأعقاب سجائر وأعواد ثقاب مُسْتَعْمَلة، وفي الجدار المقابل نافذة مُغْلَقة تَخَرَّقَتْ ستارتها وعلاها الغبارُ وخيوط العناكِب، وفي أسفل الطاولة بين الثقب وتلك الأشياء كرسيّ تَهَرّمت أخشابه وتكدّست قريباً من هيكلِ قطّةٍ عَظْمِي وبقايا شموع ميّتة. ثقب الباب عَلاَه الصّدأ وَالمكَان تغيَّر وذلكَ الرجل اختفى ولن يعود.

صائفة ١٩٩٣

مدينة الأسوار العالية

التابعي الأخضر

قال الدليل الذي يتقدّمنا: لا ترفعوا رؤوسكم، إحنوا الظهور، فالصعودُ منهكٌ وتسلُّقُ الصخور خطِرٌ، وفي البداية تنفّسوا جيداً! املأوا صدوركم بالهواء فقد تحتاجون إليه، ففي الأعالي يعسر جلبُهُ نقياً. وحتى السّعال لو بادركم فاكتموه عن أنفسكم، ومَن تملّكه منكم فَقَدَ خطاه وثوى حيث هو.

كنا ثُلَّةً من بني الإنسان مختلفي الأعمار، وربما الطبائع. غرضٌ واحد جمعنا: هو اقتحام المدينة ذات الأسوار العالية، وكلٌّ في نفسه أملٌ وفي مخيّلته أحلام. فغرضي أنا مثلاً أن أغسل أيام عمري وأنشرها على أسوار المدينة، فتكتسب جدّتها وأتذوّق طعم الزمن وهو يتوقف أمامي دون حراك وكان قبلها يمرُّ سريعاً حتى لا أتبيّن لونه.

«اقتربنا من النقطة التي لو جاوزناها لأمِنّا طريقَ الصعود»، قال الدليل ذلك، وأردف بعد أن صعّد بصره في وجوه الجميع:

ـ تخلّصوا من بعض أمتعتكم. ابحَثوا في جيوبكم عمّا يثقلكم. انفضوا الترابَ عن أرجلكم.

وإنّني لأنظر مِن تحت رجليَّ فأرى أنَّ الأرض ابتعدتْ وكأنني إلى السّماء أقرب. وكدتُ أُصاب بدوار.

وفي المحطة استراحوا، تمددوا على الأرض، باحوا بأطوالهم وقلت وأنا واقف: لأسأل نفسي حتى الآن عن...؟

وقاطعني صوت الدليل: ألم تتعهّد بأن لا تتحدّث إلا متى بلغنا الأعالي وامتلكنا حرية التنفس، فتقدر وقتها على الكلام؟ كل الكلام وقتها يكون مباحاً.

وسأل شاب وكأنه يحدث نفسه:

ـ أنا لا أحمل قضية. فما رحلتي إلا من أجل أن أُرغم نفسي.

وأشار الدليل إلى المتكلم قائلاً:

ـ انتهتْ رحلتك أنت. قلتَ ما لا ينبغي قوله في موقع لا يُسمح فيه بالكلام. ثِقْ أنك أصبحت معاقاً: فلا أنت بقيت حيث أنت، ولا واصلت الرحلة. ولقد رأيتُ في بؤبُؤَيْ عينيك أشباحَ أناس آخرين. لقد أسقطتَ أمتعتك ونسيت ما تساقط من طبائعك.

وقلتُ دون وعي أُناصر الرفيق الشاب:

ـ لقد كنتَ في أول الرحلة دليلاً. فماذا أصابك حتى تصبح آمراً؟. هل كنت تتصيّد القوافل لتصبح عليها حاكماً؟

وانضمتْ أصواتٌ لتأكيد أقوالي.

وقال الدليل واثقاً:

ـ ألم تعلموا أن آخر الرحلة مغايرٌ لأوّلها؟ وهذا الهذيان يحتلّ عقولكم. ألم تتقنوا وجودكم؟ وهل لم تجدوا غير كلمات الخلاف تتجمعون حولها؟ أبهذه العقول تهاجرون؟ والله لو أردت بكم سوءاً لسلكت بكم فجاجاً وتعاريج لن تصل بكم حيث تريدون ولكنها ستصل بكم حيث يُرادُ بكم. فكم من فئات قبلكم ضلَّلْتُ، وكمْ من أناس قبلكم أوصلتُ، وكم من جماعاتٍ مثلكم في الطريق أهْمَلْتُ.

وقال رجل:

ـ لا تغضب أيها الرجل الكريم. فنحن بدونك حجارة.

وردّ آخر يثبّطه:

ـ إذا ضجرتَ فتدحرج. فلقد وضح الطريق. لقد انتدبناك دليلاً، فإذا أنت تجلس على عرش السلطان.

كم تمنيتُ وقتها أن أقطع هذه الرحلة وأعود إلى السجن تتقدمني ملفاتٌ فيها قضايا بعضُها ملفّق، قضايا يفرح الإنسانُ بالموت من أجلها، ويقيم في نفسه أعراساً من أجل أن يُتَّهم بها...

كانت أمي تقبض عليَّ من قميصي، هي تجذب، والطرف الآخر يجذب بعنف. وصوتها المبلل بالدموع يسأل:

ـ ما جنيتَ أيها الغبي؟

قلت اطمئنها:

ـ تلك هي الغباوة يا أمي: أن يعشق الإنسان أرضاً.

وتطوّع بعض الجيران لمواساتها:

ـ سوف يُجرون عليه كشفاً ثم لا يلبث أن يعود ولو بعد حين.

وقالت أمي نائحة:

ـ ولكني خائفة من هذا الحين.

وكنت أسير وحيداً. ولست أدري كيف تفرَّق الرفاق وأين ذهبوا.

قال صوت: وأنت تسير استمع... لقد أنهيتَ الرحلة. انظر هناك.

التفتُّ فإذا رجل من خلفي يشير إلى باب من جديد يشبه بوابات السجون. فانقبضتْ نفسي. ولكن الرجل وكزني قائلاً:

ـ اذهب قبل أن تُغلق الأبواب. وهي لن تفتح قبل عام. إذن لا تضع فرصتك التي من أجلها أتيت.

ما كنتُ أظن أن أثقالاً من حديد تزحزحها يدٌ واحدة. فما إن دفعتُ الباب بيدي حتى انفتح. وكان هناك من أعانني على دفعه.

فقلت: ما أسهل أن يفتح بابٌ مثل هذا بدفعة واحدة من يدٍ مرتجفة.

رفعتُ رأسي عالياً فإذا في أعلى الباب مكتوب «سجن الأبرياء». اصطكّت أسناني رهبةً. وقلت: حتى وأنا بريء أُساق إلى السجن. لقد سمعتُ من أخبار هذه المدينة أشياء وأشياء... وقد كنتُ أعتقد أنني سأطير طليقاً ولا أحد يقدر على نتف ريشة من جناحيّ فإذا أنا أخطو أول خطواتي إلى السجن.

وغالبني ضحكٌ كتمتُه استحياءً. فقد تمثلتْ لي صورتي يوم كان فمي مشغولاً محشوّاً واضطررت أن أتكلم. ولكني قُهرت: فلا الكلام خرج من فمي ولا الأكل دخل جوفي، وآسفني أن يضحك الجميع مني.

ـ أتعبتَ الناس في مرضاة نفسك ـ قالت أمي، يوم ضبطتني أتلو أناشيدَ محرَّمة.

وقلت: لكل شيء ثمن يا أمي. لا شيء بالمجان.

ـ وقالت: ثقِّفْ نعليْك. واحكم ربطَ حذائك.

قلت: لقد مللت الكلام يا أمي. فأنا أريد أن أدخل عالم الإشارات إذ لم يعد للكلمات مدلول.

قالت: ليتني أُصبت بك فولدتك أبكم!

انتابني خوف. شعرتُ بالهزيمة. وقتها قررتُ الخروج من زمني لأغوص في زمن الآخرين.

ولم أَفِقْ إلاّ على صوت ينهرني:

ـ أنت. أريدك أنت. بالذات.

ـ أنا ـ قلت مضطرباً ـ وتقدمتُ.

كنت أحمل مزوداً، وما به غير زاد صنعته أمي أمضغه في سفري.

يا خجلي إنْ فتحوه. فما يحويه قد تعفّن، فرائحته أشبه برائحة العطن.. ولكن الرجل كان متعففاً.

قال وهو يشير باشمئزاز:

ـ ألقِ بهذه الحشرة في المزبلة هناك.

توجّهتُ حيث أشار. فإذا بأصحابي هناك، وقد ألقوا عنهم بعض ملابسهم، فهم شبه عراة.

سألني الرجل: بأي لغة تقدر على الكلام؟

ـ قلت: لقد فرّطتُ في لغتي من أجل أن أتعلم لغة تمكنني من التعبير عما في نفسي. فما قدرت على إتقان لغة غير استعمال الإشارات.. والإشارات السرية بالخصوص.

تركونا مصلوبين هناك، وأصحابي عراة، وتساءلتُ: لم تركوا عليّ ملابسي؟

عندما كنت في السجن، كنت أتحدث إلى رفاقي بكل حرية. وكان قِدرُ أُمّي قريباً مني بحيث تصل لي روائح ما تطبخه.

لقد ندمت. فأنا حقاً غريب. وتساءلت:

ـ من يقوم مكاني في السجن هناك؟ فلو أُغلقت السجون لأصاب الكسادُ سوقَ الحرية.

قلتُ لأُمي وأنا أرتمي عليها أقبّلها:

ـ لقد هربتُ من سجن الأبرياء يا أمي. ولقد تعبتُ في الوصول إليه فإذا بالبراءة شبحٌ لا يتقن غير الهذيان.

ولكن أمي ظلّت صامتة، فأَعَدْتُ:

ـ لقد انتهيتُ من البراءة يا أمي.

فردت بعسر: لم يعد هناك فرق بين الذنب والبراءة. ألم تصادف هناك في السجن، البريءَ، بجانب المجرم؟...

جذبني بعنف وصاح بي:

ـ قم معي أيها....

ـ قلت وأنا أرتجف: من أنت؟

كان هو حارس بوابة سجن الأبرياء.. بواب مدينة الأسوار العالية ـ الذي أمرني أن ألقي بمزودي وعرّى رفاق الرحلة. وبينما أنا ألقي بمزودي وزادي سألتُ أحد الرفاق:

ـ لماذا تخلّيتُم عن الوقار وبُحْتُمْ بسوءاتكم؟

أجابني: لقد جئنا هنا كي نتحول. فهل أبقوك أنت هكذا؟ إذن فحظك سيّئ. وستعود إلى سجن الأبرياء حيث كنت.

ناداني الرجل صاحب البوابة وقال بأدب وهو يصافحني:

ـ لقد كنت العدد الزائد.

ـ قلت: سأبقى في الانتظار. فما تجشمتُه من أجل الوصول كان عسيراً. اسألْ رفاقي وستعرف.

ـ وحتى لو انتظرت الدهر كله فلن تفتح لك مدينتُنا أبوابها ولن تأويك.

ـ عمل وحشيٌّ، لا يخلو من ريبة، وفيه شبهة أيضاً.

قال الرجل وكأنه يصفعني:

ـ حدّث بهذا من كتبوا في ملفك جملاً سوداء.

وعدت أبحث عن مزودي وأنا أنظر إلى البوابة تغلق. ومن فوق الأسوار العالية رأيْتُ رفاقَ رحلتي وهم يلوّحون لي بالوداع، وفيهم من حاول أن يلقي بنفسه لولا الهوّة.

تونس

لامبالاة

فوزية علوي(*)

القط ارتمى كالجريح يتشرب أشعة الشمس، وفروته القطنية في رماد يحاول إخفاء كآبته بلمعان باهت، ذيله طريحٌ ومخالبه اختفت تحت حبيبات أصابعه الوردية...

منذ مدة كف عن مطاردة الفئران والهوام... عاف الأكل... واكتفى بمضغ ريقه والاصطلاء بنار الشمس كأن به سقماً أو وِحاماً...

الشاشة تعرض وفاقاً بين اليهود والعرب... الشيخ صاح في حنق: «أغلقوا هذا الصندوق».

الشاب الأسمر لم يرفع عينيه عن رقعة الشطرنج. طرق برخ على الطاولة. سكوت. الشيخ لملم برنسه وخرج يلعن الجميع مردداً: لو أن الله أرسل علينا طيراً أبابيل أو حتى فيلقاً من الفيلة المتوحشة لكان هذا أقل الجزاء...

لم يعلّق أحد... المرأة الشابة تقلّم أظافرها ووجهها إلى الجدار... طفل صغير وقف على أصابع قدميه وغيّرَ القناة يبحث عن صور تتحرك.

القط يصيح في فزع لأنّ سيارة داست ذيله..

قط الحقيقة يهب مذعوراً بالخارج، وعندما يعلم أن المسألة لا تعدو أن تكون إخراجاً فنياً يعود إلى نومه مستسلماً.

صاحب الشطرنج يهبّ غاضباً، يمسك الصَبي من ذراعه يقذفه إلى الخارج، ويضغط على الزر فيقصف القط والاتفاق...

العجوز تتسلى بمسبحتها، تحتج: «يا ابني أنا أنتظر صلاة العصر، والمسجد بعيد... وسمعي كليل.. فدعني استمع إلى الأذان وأطفئ التلفزيون إن شئت بعد ذلك».

الشاب لا يرد... يبحر من جديد في الأبيض والأسود والجنود يتقدمون بإصرار.

العجوز تمتمت ثم أخفت مسبحتها تحت المخدة وتكورت فوق النطع مرجئةً أمرها إلى الله.

الطفل في لُعاب ومُخاط واحتجاج مكتوم يقتحم الغرفة ثانيةً، يرمي نظرات متوسلة إلى الشاب الغارق في الرقعة، يستغل إطراقه، يتقدم بخطى خائفة، يضغط على الزر من جديد... الصوت يعلو مزعجاً... الشاب يرفع رأسه عن اللعبة.

الملكة سقطت مغشيّاً عليها من هول الصدمة، لم يبق جندي

(*) أستاذة في الأدب العربي